مركز غزة للدراسات والاستراتيجيات
Center GAZA For Studies & Strategies

د. محمد إبراهيم المدهون..

يكتب..

الشيخ الإمام الشهيد/ أحمد ياسين في ذكرى الرحيل..

1441هـ - 2020م

المحتويات

الشيخ الشهيد/ أحمد ياسين..... 3

ظاهرة الياسين..... 11

نظرية العمل القيادي للإمام الياسين..... 14

حكمة الخطاب السياسي للإمام الياسين..... 19

الإمام الياسين خلاصة تجربة..... 22

الشيخ الشهيد/ أحمد ياسين

ينحني المجد أمام العمالقة ، وتبقى أسماؤهم رايات خير وجهاد شامخة ، تحرق وجوه الأعداء وتشيع الدفء والأنس في نفوس المستضعفين ، يتراقص النور وينبعث الضياء من هذا النجم الساطع ... إنه القدر الكوني لإعادة الروح إلى الجسد (ياسين) ... أهو مجرد أسم عابر ..!! بل هو جذر متأصل في أعماق التاريخ الفلسطيني .. وشجرة كريمة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء .. إنه نموذجاً فريداً صنع التاريخ ، وعنواناً ضخماً تضم آلافاً من الأبطال الذين عرفتهم ساحات الجهاد في فلسطين ...

نموذج صلب .. رمز الخير والجهـاد ، رصيد تاريخي لشعبنا في التحدي الشامخ كي تبقى الأمة مرفوعـة الهامة ، لقن الظالمين دروساً قاسية في ساحـات التحـدي في فلسطين .. إنه جزء من هذه الأرض .. منها كان نبته ، ومن أجلها كان عطاؤه, وفيها كان إستشهاده..

(ياسين) تلك الشمـعة المضيئة[1] .. الشعلة المتقدة ، شجرة جذرها يمتد إلى النبـوة المطهرة ، وهو حلقة في سلسلة كبيرة ، وهو زلزال صرخ في وجه الاحتـلال الغاشم (لا) فكان البركان.. وهو دفع ثمناً دمه ودموعه وماله .. وهـو قد أثبت أن الكف يمكن أن ينتصر على المخرز ، وأن الصبر الجميـل والجهاد الطويل يملك التصدي لقوى الباطل الجامحة ، وهو النموذج الأروع والقدوة الأمثل التي حفرت لشعبنا مكانتـه اللائقـة ومنزلته السامية .. يستحيل على الذاكرة أن تطمـس النور الساطع من هذا النموذج الخالد ، وأنوار الشهادة والشهداء تعبق ذكره وترفع أسمه .

كانـت الشهادة أسمى أمانيـه ، وكانت دعاءه الذي لا يتوقف, علم يوماً أن أحد البسطاء من مخيمه (الشاطئ) قد رأى في المنام الشهيد محمود الخواجا وهو يقول له أبلغ الشيخ أحمد السلام وقل له أن مكانه محجوز عندنا ونحن في انتظاره, فرح يومها الشيخ فرحاً شديداً. وقد أكرمـه الله بحفظ جسده النحيل رغم استهدافه بثلاث صواريخ . في الليلة الظلماء غابت الذروة الشماء وافتقد البدر الذي رحل ، وهو يبني بيت الشموخ والكبرياء ، ولم يكتمل البناء بعد ، وها هي حلة قشيبـة من الشهداء الذين نسجهم الشيخ الشهيد (أحمد ياسين) بجهاده وعلمه وهو ينادي بأن (مقادير الرجال تبرز في ميدان النزال لا في منابر الأقوال) ، ويهتف (أيها المسلمون حياتكم بالجهاد ، وعزكم بالجهاد ووجودكم مرتبط ارتباطاً مصيرياً بالجهاد ، يا شعب فلسطين لا قيمة لكم تحت الشمس إلا إذا امتشقتم أسلحتكم). رحل الشيخ الشهيد (أحمد ياسين) بعد أن أسس مدرسة الجهاد والمقاومة ، وأصبح معلماً بارزاً وركناً عتيداً في قلعة الجهاد والاستشهاد .

[1] كان الشيخ أحمد دوماً يردد (أن تضيء شمعة خير من أن تلعن الظلام)

وكانت البداية الرائدة في انطلاق حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وكتائبها على يد مؤسسها (الشيخ أحمد ياسين) المقعد الذي يهابه الاحتلال ... (ياسين) رجل القيادة والقرار الاستراتيجي الذي ولد في قرية (الجورة) ، (قضاء المجدل) الفلسطينية عام 1936م، التحق (بمدرسة الجورة) الابتدائية ، ثم أكمل المرحلة الإعدادية عام 1955م ، ثم التحق بالمدرسة الثانوية واسترعت (جماعة الإخوان المسلمين) نظر (الشيخ أحمد ياسين) ، فقرر في عام 1955م إعطاء البيعة (لجماعة الإخوان) المسلمين ، وفي عام 1960م أصيب الشيخ (أحمد ياسين) بالشلل بعد أدائه لإحدى القفزات الرياضية الصعبة، ورغم ذلك عمل الشيخ (أحمد ياسين) مدرساً ، وكان لبقاً ، ذكياً في دعوته ، وتعرض الشيخ لاعتقال أكثر من مرة عام 1965م ، إبان الضربة القاسية التي تعرض لها الإخوان في (مصر) و(قطاع غزة) ، وفي العام 1968م اختير الشيخ (أحمد ياسين) لقيادة الحركة في فلسطين ، فبدأ ببناء جسم الحركة ، فأسس (الجمعية الإسلامية) ثم (المجمع الإسلامي) ، وبدأ التفكير للعمل العسكري وقال يومها حين تمتلك حركتنا مسدساً سوف نبدأ العمل العسكري ، فأسس تنظيماً عسكرياً وزوده بالأسلحة ، فعاجلته السلطات الإسرائيلية بالاعتقال في عام 1982م ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة عشر عاماً ، ثم ما لبث أن خرج من السجن في صفقة تبادل أسرى مع (منظمة أحمد جبريل) في العام 1984م ، وكان للشيخ اليد الطولى في تفجير الانتفاضة الأولى، وإشعال فتيلها ، فأسس مع نفر من إخوانه حركة المقاومة الإسلامية (حماس) بعد خمسة أيام من بدء الانتفاضة ، وذلك بتاريخ 1987/12/14 ، واعتقل المرة الرابعة ، وفي 1989/5/17 في الضربة التي وجهت لحماس في قطاع غزة في عام 1989م على يد الجيش الإسرائيلي ، وحكم عليه بالسجن المؤبد ، إضافة إلى خمسة عشر عاماً . وقد تم الإفراج عنه يوم 1997/10/1م ، متوجهاً إلى الأردن للعلاج إبان صفقة مشعل ، وعاد إلى قطاع غزة شيخ الانتفاضة (الشيخ أحمد ياسين) وذلك في اليوم التاريخي المشهود 1997/10/6م قائلاً أن حركة (حماس) لن تلتزم أي وقف لإطلاق النار مع إسرائيل قبل زوال الاحتلال الإسرائيلي ، وداعياً إلى ضرورة الوحدة الوطنية ورص الصفوف واستقبله عشرات الآلاف من جماهير فلسطين .

ليس غريباً أن يضفي الله من الهيبة على رجل مقعد ما يرفع مكانته بين الخلق ، ويدفع الشباب أن يلتفوا حوله ، ويجعل المحتلين والمتخاذلين معاً يحسبون له ألف حساب ، ولو كان رهين المحبسين في العصر الحديث إعاقته الجسدية ، وزنزانته الموصدة عليه التي تحول بينه وبين التمتع بنسمات الحرية ، ولو على امتداد ساحة السجن الكبير ، فلسطين السلبية .. وليس غريباً أن تتابعه عدسات وكالات الأنباء ، ومسجلات الإذاعات العالمية إذا همس بكلمة أو أومأ بإشارة لأنه صاحب الرأي الحصيف والقرار النافذ والكلمة المسموعة .

عرف العالم (أحمد ياسين) القيادة والرأي والقرار والكلمة ، حين تلقاه لا تصدق عينيك ، ولكن يصدق قلبك ووجدانك وتتذكر قول الشاعر:

ترى الرجل النحيل فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

غير أنك ما تزدريه ، بل يكبر في عينك ويملأ جوانحك إعجاباً وتقديراً ومحبة ، وتتذكر (الأحنف بن قيس) سيد (بني تميم) الذي كان نحيل الجسد قصير القامة وفيه يقول القائل: إذا امتشق سيفه امتشق خلفه مائة ألف سيف لا يدري أصحابها لم امتشقوها ، ومع الفارق بين بني تميم في الجاهلية الجهلاء والقبلية العمياء وبين حماس في إيمانها ووعيها.

(الشيخ الشهيد أحمد ياسين) الرجل المقعد الذي أرعب الظالمين وحيّر إسرائيل . هذه الكتلة من اللحم التي لا تقوم على عظام ، وهذا الجسد الذي ماتت معظم أعضاؤه إلا القلب ينبض بالإيمان ، والعقل يفيض بالعمق والتفكير واللسان بحركه الوجدان ، في عينيه بريق تحس أنه بريق نفّاذ أعمق من أشعة إكس التي توصل العلماء بها إلى اختراق خبايا جسد الإنسان لتشخيص ما أصابه ، و(أحمد ياسين) في عينيه بريق نفّاذ يشخص روح الإنسان في أعماقه بشفافية المسلم الذي يرى بنور الله وفراسة المؤمن التي لا تخيب .

(أحمد ياسين) عرف بين إخوانه بالتخطيط ولم يعرف بالصخب ، وعرف ببعد النظر دون الالتفات للتهريج أو اللغط والخصومة وعرف بالتواضع في مركزه القيادي المرموق ، ولم يعرف بالاستعلاء ، وعرفه إخوانه بصدق التوجه إلى الله وغرس البذور في حقل الله المثمر الذي تنبت السنبلة فيه سبع سنابل أكثر من التبجح ووضع البذور في حقول الخلق المعرضة للبوار ، ومن هنا ظل الرجل شامخاً لا يطأطىء رأسه ، راسخاً لا يتزعزع مثل رواسي الجبال . (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) البداية التي انطلق من رحمها (حماس و القسام) ، فزلزلوا عرش الطواغيت وأعادوا بناء المعادلة.

خاطبه الشاعر قائلاً :

عينك تبدو للعيان كأنها حمم تقاذفها اللهيب

والصوت رغم ذبوله وجفت له كل القلوب

والجسم يفخر أنه حمل الضمير الحي في ذاك الشهيد

والنور يبدو في محيا الشيخ دفاقاً محني بالورود

من بعد إفلاس وإحباط أعدت الشعب للمجد التليد

وصنعت جنداً حطموا أسطورة الجندي ذاك ابن القرود

وزرعت في قلب الأحبة زهرة الإيمان

تروي بالدم المعطاء في كل الدروب

يا أحمد الياسين يا روحاً تمزج في شرايين الشعوب

عذراً إذا عجز المداد لأن يحدث حبك المكنون في كل القلوب

لم تسترح غـزة ذلك اليوم فقد كان بانتظارها ليل آخر تسرب في خيوطه الأولى دمٌ ترامى فوق يديها كالشظايا ... (دم الشيخ الشهيد أحمد ياسين) ، في البرهة التي يتكاثر فيها الزبد ويصبح المقاتلون فئة قليلة ، في الوقت الذميم الذي تتربص فيه الحواجز والأسلاك الشائكة بالعيون المقاتلة الشاخصة إلى كل بقاع فلسطين ، غاب (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) واحترق نجم فلسطين هوى على (القدس) كعباءة منسوجة بورق الزيتون ووجهه مقبل على الصلاة كحدود الشهادة ، (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) الرجل المعنى في زمن تساقطت فيه المعاني عن كثير من الرجال ، الطيف العصي الذي لا يُرى بسهولة . (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) اليدان اللتان تتقنان صنع الحرائق لتشرق الشمس بلا كآبة ، على الذرى الفلسطينية العينان اللتان تصادقان الليل في البحث عن ممر إلى ثغور الغزاة ، الكوفية التي تتشابه خيوطها مع ندوب الأرض المقدسة ، كان يدرك أن عليه أن يخفي ملامحه والخفق الفلسطيني في قلبه وبيارات البرتقال في عينيه كي لا يكتشف أحد موقع الانفجار القادم فيما الغدر يتربص به ويكمن في الزوايا والأزقة وتحت أصغر الظلال .

البارحة وبعد أن تسرب دم (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) في هدوء الأمسية ، سيصعد صوته من غموض الأشياء القاتمة في فلسطين مثل برج حجري لصوته الشهيد ، أنا (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) المولود في حقل فلسطين على أزهاره دم لم أستطع تفسيره طفلاً ، ولم أستطع احتماله رجلاً ، تعلمت كيف أمسح الدم عن الأقصى بالحرائق والتفجيرات فكانت حماس والقسام, وكيف أمسح الدمع من عيون المحروميين والمكلومين فكانت المؤسسات الخيرية, وكيف أربي الجيل الجديد فكانت المساجد و المدارس والجامعات . ليس في فلسطين حجر أو زاوية أو جدار لا يستطيع أن يتهجأ اسمه ليس هناك جدولاً ولا سنبلة أو شجرة لا تتشابه به مع ملامحه ، تتشابه مع الرجل الذي أخفى ملامحه لتتضح معالم البلاد .

دم (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) في غزة كان يركض في شوارعها كنهر بلا مستقر ، كان يرفع صوته ذبيحاً، يحكي قصة النموذج الأسطوري الذي صوب قلبه إلى الشمس في (قلب) غزة هاشم ، ولم يتسع له الوقت ليطرق أبوابها واحداً واحداً كي يضع أمانة الدم في الدم ، فكان أن ترك وصيته على الأرصفة حتى تصافح في الصباح وجوه تلاميذ المدارس وهم يذهبون إلى درس القراءة عن الوطن المحاصر بين الوثائق وسلاح الغزاة ، استشهد (الياسين) تاركاً أمانة الدم لنا وإشارة صريحة إلى جهة الخرق الإسرائيلي القادم .

وعلى حافتي الطريق يبقى المهرولون أصحاب الدنيا يبحثون عن مكان فوق الطين فيما يستقبل الشيخ الشهيد الشهادة وهو يرفع الراية في زمن الصعود الصهيوني الأمريكي يبرز الخيار ناصع البياض ، فعندما يسقط رأس (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) حينها (الياسين) غير قابل للرثاء ويستعصي على الكلمات ، (الياسين) كان قابلاً للانفجار ، قابلاً للاشتعال وقلبه وسع كل فلسطين من بحرها إلى نهرها ، فأي لغة يمكن أن تسعه . إن دم (الشيخ

الشهيد أحمد ياسين) قد وضعنا على طرف الخيار ، إما أن نُغيب أو نُعلب أو نموت على مزاج الأوصياء ، وذلك منطق الجنون ، جنون السقوط طالما أننا نستطيع الموت شهداء على مزاجنا .

وما أن انتشر خبر استشهاد (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) حتى ساد في أنحاء فلسطين خاصة والعالم الإسلامي عامة حالة من عدم الاستقرار ، وخرجت مئات الآلآف في شوارع قطاع غزة وفلسطين يهيمون على وجوههم بغير وعي ، وأعلنت إسرائيل حالة الطوارىء ، وأغلقت الضفة وغزة ونشرت قوات معززة ، ولم تخف فرحتها العظمى بهذا الخبر ، حيث صرح (شارون) بالقول : " أنه أشرف شخصياً على تنفيذ عملية الإغتيال وأن هذا إنجازاً عظيماً" . و يسيطر الآن على إسرائيل شبح العمليات الاستشهادية ، وفي غزة توجه مئات الآلآف إلى بيت (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) ، فيما انهمرت الدموع من العيون ، ويصرح قادة حماس أن استشهاد (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) ليس النهاية.

وقد نعت (حماس) شهيدها العملاق عبر البيانات ومكبرات الصوت ، وأعلن الرئيس عرفات الحداد الوطني لمدة ثلاثة أيام ، بينما خرج الملثمون التابعون لحركة (حماس) في مختلف أنحاء الضفة الغربية وغزة ينعون الشيخ الشهيد ، وانطلقت مسيرات جماهيرية حاشدة في مختلف أرجاء فلسطين والعالم الإسلامي حيث انطلقت مسيرات جماهيرية حاشدة شاركت فيها كل القوى.

وفي يوم الرحيل كان الوداع الأخير لنجم فلسطين الأول ، فكان يوم الاثنين الثاني والعشرين من مارس 2004 لا مثيل له في تاريخ غزة ، حيث احتشد ما يزيد عن النصف مليون من شباب قطاع غزة وأقيمت الصلاة على جثمان الشهيد في مسجد العمري ، وانطلقت باتجاه مقبرة الشيخ رضوان ، وسار الموكب أربع ساعات متواصلة ، الجماهير التي انطلقت بحشودها المتراصة تؤكد أن الياسين حس الجماهير وخيارها الأوحد ، فانتخبته في استفتاء قاطع لكل الأوهام ، ووقف علماء النفس يلوون شفاههم ما هذا ؟ من أين جاء كل هؤلاء لتشييع الشيخ الشهيد ، ويوم عرسه الرائع ، الأعناق تدوس الأعناق ، والرجال تحلق زاحفة مسافات ومسافات لا تدري من يحملها فوق الأرض ، والكل يبغي التمسح بالجسد ولا تواتيه الفرصة ليخضب أصابعه بقطرة من دم الشهيد يضعها على شفتيه فتفوح منها ريح المسك .

القتلة الذين ظنوا خطأ أن ثلاثة صواريخ قد أنهت حالة (الياسين) في الشعب الفلسطيني ، ولو قدر لشارون أن يقف يوم الاثنين أثناء عرس الشهيد لأدرك أنه فرغ على التو من إعداد ما يزيد عن النصف مليون (ياسين) .

ترى كم كان وسع خطوة (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) وهو يغدو بين جنبات الوطن خطوته حين غادرنا كانت بالكيلومترات ... خطوة الياسين صارت بيتاً وسع الشعب كله حين سار في جنازة الشيخ الشهيد.

وفي المقبـرة اصطفت الآلاف لإلقـاء النظـرة الأخيرة على الجثمـان المسجى ويطبع أحبابه وجنوده القبلة الأخيـرة على جبينه الطاهر ، فيما أطلقت كتائب القسام وقوى المقاومة واحد وعشريـن طلقة تحية للشهيـد.

(الشيخ الشهيد أحمد ياسين) في لحظة الولادة كان السنديان يشتد ، وفي لحظة الشهادة كانت الولادة سنابل تتسلق عتبة الدار لتحاكي ذكرى طفل ترك وراءه حمام البيت ودفتراً فيه أمنيات تنام بهدوء ولا يجزعها المنام ليلاً يجيء الياسين يفتح باب الدار فيهب النعناع وقلب أمه المطرز بالأقحوان .. لطفل كانت تهدهد له حمام الدار كي ينام .. يدخل وحقيبته الملونة . يسندها إلى حائط حجري وينام في حضن أمه ، فتعدد الهجرات في جبينه ، يهرع الياسين إلى المخيم ، يركض إلى بحر غزة .. يلقى مركبه الورقي الصغير .. وينام على شاطئه ويتقلب على رماله ، فتكبر الجروح في عينيه كأنها ألف عام .. يكبر (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) ويكبر معه المخيم .. من طفل مشاكس إلى شيخ قادم عبر الذكريات والطلقات التي اخترقت صدر المخيم لكنه لم ينحنِ .

تستفيق فلسطين على انفجار وتخرج البلاد من جرحك النازف قرى وجداول ماءً ونعناعاً ، يستفيق الشهداء يخرجون من جرحك قطرات دمٍ سالت على الجبين الصلب المتغصن والشهداء يضمدون جرحك النازف ، ويدعون طيور الصباح المهاجرة لتتوسد الجسد المسجى بهدوء ملائكي كأنه يخبيء بين ضلوعه انفجاراً قادماً .

وتخرج غزة لتودع (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) .. تخرج كل فلسطين لترى الشهيد الذي لم يمت .. تكبر البلاد بولادة (الياسين) ... تزغرد أم لطفل قادم في وجهه ابتسامة ، وفي يديه دفتر صغير ومركب ورقي ، ويركض إلى بحر غزة يفتش عن حدوده ويتقلب على رماله ويكتب الياسين لم يمت ولكن شبه لهم . هكذا يموت الأبطال .. أشجاراً أصلها ثابت وفرعها في السماء .. جبالاً تمر عليها ضربات السنين ، لا يموتون ، ينتقلون من حياة إلى حياة ، ومن دار إلى دار ... كما الطير يسرح في فضاء لا حدود له. هكذا خرج (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) من الحياة ، حياة العنف والكد ، خرج بعد أن أدار لها ظهره ، وبعد أن نظر إليها نظرة الاستخفاف والسخرية ، ما أهونك على من خلقك .

هكذا خرج الياسين من الحياة ، بعد أن أودع فيها بدلة الكاكي وقطعة السلاح ورغيف الخبز اليابس والبساط الملوث بالوحل والطين ، لم يعد (الشيخ الشهيد أحمد ياسين) بحاجة إليها فقد استنفذ وقته ورحل ... هكذا خرج (الياسين) من الحياة .. بعد أن حفر بكلتا يديه طريقاً للرصاص الممتد من رفح حتى الجليل ورسم ممراً للقنابل تعبر فوق الجسور وتحت الأنفاق ، وبعد أن شق جدولاً للدماء يخترق سواحل غزة وجبال القدس وروابي الخليل وسهول يافا ، حتى إذا بلغ المرج تدفق شلالات تتراقص على لحن بيوت اللاجئين وخيام الفقراء والأطفال الذين انتظروه على قمم الجبال لأنه وعدهم أن يمر ويسلم عليهم . هكذا خرج الياسين من الحياة ، بعد أن علم الأطفال الذين لم يجيدوا نطق الحروف الأبجدية بعد أن روضة الاستشهاديين ستكون فيها أرجوحتهم ولعبهم ولهوهم . وهكذا علمهم نطق الألف والباء في حرية الدم وحلاوة المراغمة ، ورسم على وجوههم صورة لا تكاد تمحى ، إنكم يا صغاري الأبطال

وحدكم ، وغيركم الجبناء ، أنتم الفرسان تمتطون صهوات المرحلة وغيركم تأبطوا ملفات السياسة المارقة المليئة بأخطاء اللغويات . هكذا خرج بطلاً في وقت عزّ فيه الأبطال وفارساً في وقت تنادى فيه المتساقطون على وليمة الوطن ، ورمزاً في وقت سقطت فيه الشعارات الممجوجة (المقرفة) .

أهي الحقيقة يا (شيخنا) ، لن نراك بعد الآن ؟ وأهاً يا أمة العرب ؟ ألن ترقص النساء في مخيم الشاطئ على صوت عجلات كرسيك المتحرك وأنت تهدر في أرضك (المسلوبة) في الجورة وتل الربيع، ألن تلقى أخاك أبا محمد (الرنتيسي) لتهمس في أذنيه خلي بالك .

(الشيخ الشهيد أحمد ياسين) .. يا أبا محمد لم تمل من الجهاد والمطاردة ولا حفيت أقدامك من الشوك ولا ارتجفت مفاصلك من لذع البرد وحرقة الشمس ، كنت أعلم أنك تطارد وتطارد ، تجري وراء جيش بأكمله تحاربه ومعك جيش الإستشهاديين ، ويجري وراءك جيوش من السفلة وشذاذ الآفاق ، من يهود البقرة ، وعرب النفاق الذين ربوا على النفاق . أخيراً اصطادوك ، أغبياء هم وما أتعسهم ، لقد اغتالوا فيك الجسد المشلول ، لكننا - وقت السقوط - كنا عند رأسك ننتظر روحك نلفها بالحرير والطيب والحناء ، وقت السقوط رحلت إلى عليين بإذن الله ، لم تشأ إرادة الله أن تطال الأيدي الآثمة والأرجل النجسة منك ، يا طهر البحر وطيب السماء .

(الشيخ الشهيد أحمد ياسين) ... ما أجملك وأنت تدخل بوابة القبر وقد اصطفت ملائكة السماء ، صفوفاً صفوفاً تنثر عليك الرياحين وتغمرك بالطيب ، ثم ها هو (صلاح شحادة) يقف من بعيد ينتظر إلى أن يصل إليه الدور ليطوقك بكلتا يديه، لم يتغير فيه شيئ . يقبلك من جبينك ووجنتيك ، ثم صف الشهداء إبراهيم المقادمة, إسماعيل أبو شنب, الجمالين وآخرين وصف من الكتائب يحيى و محي الدين وسهيل وعبد الحكيم وآخرين ، يدعونك الآن حتى تستريح من عناء الرحلة ، يدعونك تستريح من وعثاء السفر . كانت رحلتك طويلة ، آن لهذا الفارس أن يمد قدميه ويلصق ظهره بالأرض ويغمض عينيه وينام .

تعتقد أنك انتهيت الآن ...

عليك العودة على بدء .. فالشهيد الشيخ ملحمة خالدة لا تنتهي ... والياسين مدرسة عز نظيرها والمدرسة مشرعة الأبواب .. تؤذن أن في الطريق سالكين قد سبقوك .. وأن الدرب الممهرة بالدم .. المسيجة بالتضحية .. المعبدة بالجهاد المتنوع اللامحدود لازال فيها متسع للسالكين .. ولازال في الوقت متسع .

وإن التوثيق واجب كي تبقى مدرسة الياسين تتوارثها الأجيال كي تحدث أبناءك قصص العظام وتعلمهم أبجديات المقاومة .. وتقدم لهم القدوة شاخصة في دماء نازفة .. وأرواح توّاقة .

قدوة من ذات العصر الذي تحياه كي لا تعتذر بتغير الأيام والأزمان ... القدوة في أولئك النفر العظام الذين تمنطقوا بالشهادة وتسلحوا بالعقيدة .. وقدموا لأمتنا وشعبنا النموذج الأروع ، ورفعوا أسهم قضيتنا وتقدر العظمة بمقدار ما يقدم المرء لدينه وأمتـه وشعبه من عطـاء .

إذا كانت قرأت قصة الشيخ فعد إليه ثانية فهو سلاح في مواجهة النوائب يدفع فيك العزم والهمة ... أو ادفعه إلى من أحببت كي تقذف فيه الروح .

وأنبأ الجميـع أن (الشيخ الشهيد الياسين) مدرسة عظيمة خالدة ، وجدير أن يسطر تاريخها بمداد النـور والنار ليبقى سجلاً تتوارثه الأجيال حتى يأذن الله بالنصر والتمكيـن.

ظاهرة الياسين

الشهيد الإمام أحمد الياسين ظاهرة ضخمة بكل أبعادها، فهي ضخمة بحيثيات نشأتها التاريخية، وضخمة بعطاءاتها الفكرية الثقافية، وهي كذلك متميزة في تصدّيها السياسي والعسكري. لقد كانت من الضخامة بمكان استطاعت معه أن تملأ الفراغ المرجعي للحركات الإسلامية الناتج من التقاعسات المتراكمة من جهة، ومن الهجمة الشرسة المخططة التي أحكم النظام العالمي الجديد تنفيذ فصولها من جهة أخرى. إنّ مواجهة الشهيد الإمام الياسين للإحتلال ومعاوله القاتلة الهادمة وقد مضى على عمله أكثر من خمسة عقود دامية، تفنّن فيها الإحتلال بكل ما يستطيع من أجل تدمير الشعب الفلسطيني، تقع في مصاف الأحداث التاريخية المتميزة في مسيرة النضال الفلسطيني من أجل إقامة النظام الإنساني الإسلامي.

لقد ملأ الإمام الياسين الفراغ وحوّل المأساة التي كانت تعيشها القضية الى مبادرة عطاء ضخمة أعادت الى الأذهان أيّام الله الكبرى يوم كان التصدي للغاصب الظالم يتشرف براية التوحيد والالتفاف الجماهيري الملتزم الزاحف حولها.

وهكذا اختلت الموازين وانبعث العملاق من قمقمه بعدما ظنّ الجلاّد أنّه قد أحكم سجنه ولا أمل في عودته ليملأ الدنيا من وجوده الكبير فيقود الياسين الطلائع المجاهدة والجماهير المؤمنة نحو الفجر الصادق بقيام المجتمع الإسلامي.

منذ أكثر من خمسة عقود كان الإمام الياسين مواكباً لمسيرة الحركة الإسلامية وحركة التغيير العالمي. فكان يتفاعل معها بوعي كامل ومشاركة جادة عبرت عن نفسها في كل مقطع زمني متميز بطريقة مناسبة ومدركة لمعطيات المرحلة وملابساتها. ومن خلال رصدنا لمشاركته في مسيرة التحرك الإسلامي الواعي في فلسطين. في البداية, كان تحرك الياسين في دعوياً عاماً جاب المساجد والمؤسسات والأندية والشوارع داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة مؤسساً للعمل الخيري عبر إنشاء مؤسسات مثل الجمعية الإسلامية والمجمع الإسلامي. والمرحلة الثانية اتسمت بالرصد الدقيق للأحداث والمشاركة الحذرة، واستمرت هذه المرحلة منذ أواخر السبعينات واستمرت الى مرحلة العمل التنظيمي والسياسي في مطلع الثمانينات حيث اعتقل الإمام للمرة الأولى مع الزمرة الأولى من الرعيل الأول الذي يمثل المؤسس لحركة المقاومة الإسلامية وإن لم تحمل ذات الاسم في تلك المرحلة. لقد كان للشيخ الياسين تصوراً واضحاً للعمل السياسي والعسكري في تلك المرحلة وإن تبلور دلك لاحقاً مع إنطلاق الانتفاضة وكان له بها إسهام يتناسب مع هذا التصور.

والمرحلة الثالثة اتسمت بالتصدي القيادي، مستفيداً من الظروف التي كانت تمرّ بها القضية الفلسطينية لإعادة بناء التحرك الإسلامي على أسس رصينة، بعدما أوغل الإحتلال في تخريب ساحات ومفاصل هذا التحرك. لقد

اتسمت هذه المرحلة من نشاط الإمام الياسين بأنها سعت لسد الفراغ القيادي من خلال التفاعل مع الواقع بكل أبعاده المثبطة أو المشجعة. ولم تنته هذه المرحلة باعتقال الإمام فقد ترك قاعدة تنظيمية رصينة بعد توفر مستلزمات الديمومة والإستمرار التي وفرها الإمام.

والمرحلة الرابعة جاءت بعد الإفراج عن الشيخ ومنذ اليوم الأول الذي خرج فيه الإمام من المعتقل بعد صفقة مشعل الشهيرة كان أكثر عزماً وأشد مراساً واستعداداً لمرحلة الصراع والصدام القادمة مع الاحتلال وذلك رغم كل الظروف التي كانت تعيشها حماس عقب ضربة 1996 وقد ختم الإمام الياسين تلك المرحلة بانتفاضة أشد بأساً وأكثر إيلاماً لإسرائيل ودفعت حماس الثمن الأبهظ عبر استشهاد خيرة الرعيل الأول من الجيل المؤسس, وعلى رأسهم الإمام الشهيد حيث ختم الياسين المرحلة بالشهادة.

ومن خلال المعايشة أو المتابعة لمسيرة الإمام الياسين يمكن القول إن هناك عملاً تراكمياً بين هذه المراحل تبنى بها كل مرحلة على سابقتها. كما أنّ هناك ثمة تداخلاً بين هذه المراحل، فالممارسة التنظيرية كانت مستمرة على طول الخط، كما أنّ التنظيم كأسلوب من أساليب العمل ظلت تلف الكثير من ممارسات الإمام رحمه الله. والعزيمة في كل مرحلة كانت مدرسة الإمام من أجل الانطلاق للمرحلة الأكثر تقدماً في عملية الصراع المتكامل في شتى الميادين مع الإحتلال. ومضافاً لهذه وتلك فإنّ عملية تطوير النظرية والممارسة كانت مواكبة للمتغيرات والأحداث الطارئة، مما يضفي نوعاً من المرونة في إنزال الأهداف، ويمكن القيادة من المناورة عند الضرورة.

الشهيد الياسين منذ أن بدأ تحركه الى آخر يوم من أيام حياته كان ينطلق من فهمه أنّ الإسلام هو الرسالة التي ينبغي أن تسود الحياة. هذه المنطلقات كانت الأسس التي اقام عليها الإمام الياسين معالم نظريته في التحرك، وهو ما مارسه منذ الستينيات، كما بيّنه في خطبه وتوجيهاته. أساسيات الانطلاق، أو لنقل إن أساسيات نظرية العمل السياسي عند الإمام الشهيد الياسين رحمه الله كانت واضحة منذ البداية. فمنذ شبابه كانت المنطلقات واضحة لديه، وكانت تلك المنطلقات هي الأسس الصلبة التي أقام عليها تصوراته للسياسة والمسيرة والعمل الإسلامي.

ولاشك ان هذا النداء الصادر من أعماق النفس، هو ألصق النداءات بالإنسان وأبلغها أثراً في نفسه، وإنّ الوصول الى الحق عن هذا الطريق لهو أيسر الطرق وأسهلها. لذا فقد كان الاعتراف بالإسلام وبعقائده سهلاً يسيراً وموافقاً للبداهة والفطرة، وللبرهان العقلي الصحيح.

والنظام الإسلامي هو النظام الأمثل الخالد، لأنه أحسن النظم البشرية وأصلحها للتطبيق. ودليل ذلك أننا نرى أنّ الفكر الحديث لم يسبق الإسلام بنظرية صحيحة صالحة للبقاء.. وبخاصة في مجالات التقنين والتشريع.

وانطلاقاً من أنّ الإسلام سنّ مبدأ التكافل الاجتماعي وحثّ على معونة الفقراء وعتق الأرقاء. وحارب الاحتكار وتضخم الثروة. في زمان لم يكن يفكر بشيء من ذلك أحد إنطلق الإمام ليؤسس المؤسسات الخيرية التي ما تزال أياديها بيضاء وجهدها الأبرز في خدمة المجتمع الفلسطيني ودعمه بأسباب البقاء والمقاومة.

والمنهج التربوي في الإسلام، منهج واسع وعميق. يتكفل الفرد بالعناية والرعاية، منذ ولادته، ويسير معه في جميع أعماله وأقواله الى آخر لحظة من حياته. ومن هنا اهتم الإمام بإرساء قواعد العمل التربوي عبر المساجد ومؤسسات تعليمية وتربوية رائدة مثل الجامعة الإسلامية ومدارس الأرقم وغيرها. بل إنه قد لاحظ بثاقب نظره أن التربية من خلال الحياة غير كافية لأن تُنشئ فرداً صالحاً بمعنى الكلمة، وكما يريده الإسلام أن يكون، لذا نراه قد التفت الى الوالدين فأمرهما بإصلاح أنفسهما وتهذيب سلوكهما لكي لا يرضعا ولدهما الصفات الخبيثة والأخلاق الدنيئة، بل ليربيا جيلاً صالحاً يسعى في خير مجتمعه وأمته، يسطع في ربوعه ضوء الإسلام وتصعد البشرية بجهوده في سلالم الكمال.

نظرية العمل القيادي للإمام الياسين

لا شك أن المتتبع لمسيرة حياة الإمام الشهيد الياسين سيكتشف ملامح الأناة السياسية، والصلابة في الثوابت والمرونة في الوسائل، ونماذج للملامح القيادية، ويتضح له أن الإمام الياسين أسس مدرسة في فن القيادة خاصة كما أسس حركة مقاومة . ولا شك أن هذه المدرسة هي إبداع من تلميذ نجيب للمدرسة الوسطية الكبرى التي ينتمي إليها الشهيد الياسين, ولعل من أبرز ملامح هذه النظرية:

إرساء المنهج :

الشهيد الياسين منذ أن بدأ تحركه إلى آخر يوم من أيام حياته كان ينطلق من فهمه أنّ الإسلام هو الرسالة التي ينبغي أن تسود الحياة. هذه المنطلقات كانت الأسس التي أقام عليها الإمام الياسين معالم نظريته في التحرك، وهو ما مارسه منذ الستينيات، كما بيّنه في خطبه وتوجهاته. أساسيات الانطلاق، أو لنقل إن أساسيات نظرية العمل السياسي عند الإمام الشهيد الياسين رحمه الله كانت واضحة منذ البداية. فمنذ شبابه كانت المنطلقات واضحة لديه، وكانت تلك المنطلقات هي الأسس الصلبة التي أقام عليها تصوراته للسياسة والمسيرة والعمل الإسلامي.

ولاشك أن هذا النداء الصادر من أعماق النفس، هو ألصق النداءات بالإنسان وأبلغها أثراً في نفسه، وإنّ الوصول إلى الحق عن هذا الطريق لهو أيسر الطرق وأسهلها. لذا فقد كان الاعتراف بالإسلام وبعقائده سهلاً يسيراً وموافقاً للبداهة والفطرة، وللبرهان العقلي الصحيح. والنظام الإسلامي هو النظام الأمثل الخالد، لأنه أحسن النظم البشرية وأصلحها للتطبيق. ودليل ذلك أننا نرى أنّ الفكر الحديث لم يسبق الإسلام بنظرية صحيحة صالحة للبقاء.. وبخاصة في مجالات التقنين والتشريع.

وانطلاقا من أنّ الإسلام سنّ مبدأ التكافل الاجتماعي وحثّ على معونة الفقراء وعتق الأرقاء. وحارب الاحتكار وتضخم الثروة. في زمان لم يكن يفكر بشيء من ذلك أحد أنطلق الإمام ليؤسس المؤسسات الخيرية التي ما تزال أياديها بيضاء وجهدها الأبرز في خدمة المجتمع الفلسطيني ودعمه بأسباب البقاء والمقاومة.

والمنهج التربوي في الإسلام، منهج واسع وعميق. يتكفل الفرد بالعناية والرعاية، منذ ولادته، ويسير معه في جميع أعماله وأقواله إلى آخر لحظة من حياته. ومن هنا اهتم الإمام بإرساء قواعد العمل التربوي عبر المساجد ومؤسسات تعليمية وتربوية رائدة مثل الجامعة الإسلامية ومدارس الأرقم وغيرها. بل إنه قد لاحظ بثاقب نظره أن التربية من خلال الحياة غير كافية لأن تُنشئ فرداً صالحاً بمعنى الكلمة، وكما يريده الإسلام أن يكون، لذا نراه قد التفت إلى الوالدين فأمرهما بإصلاح أنفسهما وتهذيب سلوكهما لكي لا يرضعا ولدهما الصفات الخبيثة والأخلاق

الدنيئة، بل ليربيا جيلاً صالحاً يسعى في خير مجتمعه وأمته، يسطع في ربوعه ضوء الإسلام وتصعد البشرية بجهوده في سلالم الكمال.

الوعي والحكمة:

لقد قام الشهيد الإمام الياسين أحسن قيام بأداء دور القائد في فلسطين الجريحة، فالتفّت الملايين من الناس حوله وآمنت بخطه واتبعت نهجه، واستشهد هو تطبيقاً لمبادئه، وجماهيره ما تزال تواصل طريقه في فلسطين الشهادة. وآمنت به الطلائع الواعية من ذوي البصائر وأصحاب العقيدة الإسلامية الراسخة، ولا عجب في ذلك، فقد كان عهدهم بهذا المعلم الشهيد بعيداً فلطالما تثقفوا في مدرسته وتدارسوا روائعه وتعلّموا منهج الإسلام العظيم على يديه.

لقد كان الإمام الياسين واعياً لما يقوم به، وذكياً في تصرفاته ومواقفه، وحكيماً بعيداً عن الانفعال أو التأثر بعناصر غير لصيقة بمشروعه الإسلامي. وكان الشهيد الإمام الياسين شجاعاً بطلاً غير متردد وغير هيّاب من الأعداء. وكان يخفي ما يريد إخفاءه كما كان يظهر ما يريد إظهاره بإقدام وشجاعة فائقة حتى لو كلفه ذلك حياته. كان يبذل كل جهده ووقته وكيانه من أجل الإنسان المسلم بصورة عامة والإنسان الفلسطيني بصورة خاصة. لذلك أحبه الناس بعقولهم وقلوبهم وكل جوارحهم.

الإرادة :

لقد أدركت الصهيونية العالمية وأميركا وعملاؤها خطورة مشروع الإمام أحمد الياسين التغييري فكان قرار تصفيته. لقد كانت معركة الإمام الياسين مع الاحتلال في فلسطين ومن خلفه الصهيونية العالمية والقوى الاستعمارية معركة بقاء أو موت. والشعب الفلسطيني من أعرق شعوب الأرض وأكثرها مواصلة لمسيرة الكفاح، لذلك فالإمام الياسين «رحمه الله» مستمر في قيادته كما هو شأن كل القيادات التاريخية للشعب الفلسطيني وهي في حقيقتها معركة المنهج ونظرية العمل السياسي والاجتماعي من أجل خدمة الإنسان وإقامة المعطل من شرع اللّه.

وعلى كل حال، فالمعركة عميقة في جانبيها النظري والتطبيقي، ومن هنا فإنّ من أهم معالم إدامة الصراع مع الظلم هو استخلاص نظريه في العمل الإسلامي بأشكاله المتنوعة الثقافي والاجتماعي والسياسي والعسكري.

خطيب مفوه :

والخطابة واحدة من المفردات المهمة في نظرية العمل الدعوي عند الإمام الياسين في جانبها العملي هي إصلاح المنبر وتفعيله كمؤسسة تأثير وترشيد بين صفوف الأمة. فالخطيب يمكنه أن يتحرك على ساحات واسعة تتوسط مختلف قطاعات الأمة. فإذا أصلح طرح الخطيب وفق منظور ناضج فإن الناتج هو أمة من الإسلاميين الواعين

المؤمنين الذين يحملون الفكر النقي والتوجه السليم. ومن هنا اهتم الإمام الياسين في أن يكون خطيباً وأن يعد الخطباء.

إستثمار الفرص :

كان الإمام الشهيد يتحرك بقدر الإمكان مع وجود الفرص السانحة، آخذاً بنظر الاعتبار الضغوط التي تمارس ضده للتقليل من نشاطه وإصلاحه وتأثير ذلك على الاحتياجات الكبرى للمجتمع. وكانت دائرة التحرك تتسع لتشمل قطاعات أوسع من المجتمع متناسبة مع درجة ارتفاع الحاجة. المعادلة كما يراها الإمام الياسين هي أن نشاط الدعوة يتناسب كثرة أو قلة مع همة القائمين عليها. ومن هنا فإن موقف القيادات العاملة والعناصر المجاهدة كانت تتأثر بدورها بهذه المعادلة. فكانت حركتها تتصاعد عند تصاعد حركة القيادة.

مجاهد الصف الأول :

وأمّا الجهاد فقد (فضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) وأعطى المجاهد درجة من الكمال والفضيلة لا يستحقها القاعد المتخاذل المتواكل المسوف لأعماله والمتباطئ عن تعاليم دينه القويم. والجهاد هو التفاني بجد وإخلاص في إنجاز العمل الذي أوكله الإسلام الى الفرد ليقوم به، فهو باب واسع من الأعمال تنتظم جميع الفعاليات الإسلامية الخيرة وليس مختصاً بحمل السلاح في سبيل الدفاع عن الإسلام كما قد يبدو لأول وهلة.

فالجهاد يشمل كل من وجد ضعيفاً ينوء بثقل الزمان فأسبغ عليه شيئاً من الرحمة والإحسان، ومن وجد فقيراً ينام الليل ولم يدخل جوفه الطعام منذ أيام فأعطاه شيئاً يسد رمقه، ومن وجد يتيماً قد قذفته داره إلى قارعة الطريق فآواه وأشبعه وألبسه وأحسن تربيته، ومن وجد أخاه المؤمن مضطراً إلى أمر من أمور الحياة وهو متمكن من إعانته، فأعانه على تحمل مشاق حياته، ومن شعر بأن الله الذي خلقه من بعد عدم وأنعم عليه من بعد فقر وأسعده من بعد بؤس أهل للعبادة والدعاء فتقرب اليه ودعاه وأخلص في عبادته، ومن عرف أن الله عز وجل قد أرشده إلى خيره وصلاحه وفرض عليه بعض الواجبات فقام بها بأمانة وإخلاص. وذروة سنام الإسلام الجهاد الذي خصه الرسول صلى الله عليه وسلم والذي مارسه الإمام الشهيد الياسين في مراحل حياته حتى ختم الله له بالشهادة (نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله). وهكذا كان الإمام الشهيد رحمه الله ما ترك باباً للجهاد إلا وطرقه.

وعلى صعيد العمل المسلح، فإن تصور الإمام الياسين للثورة من خلال فهمه لحركة القيادة والعناصر ومدى استعدادها وقد وجد من القيادة الملازمة والجند استعداداً مطلقاً للتضحية أثلج صدره وأيقن أن الثمن باهظ لكن الجميع مستعد لدفع الثمن بنفس راضية. والإمام الياسين كان يسعى إلى إثبات الحق لأصحابه وإيلام الباطل متجسداً بالاحتلال وهزيمته على كل الصعد مع المحافظة التامة على ديمومة الصراع وإبقاء جذوة الجهاد مستعرة وقد كان.

القيادة عنوان التضحية:

من أهم معالم السلوك القيادي للشيخ الشهيد الياسين هو إيمانه بدور القيادة المركزي في النجاح في قيادة الأمة، وإيمانه بنظرية التضحية التي تجسدها القيادة أولاً لتمثل القدوة. وعلى صعيده الشخصي، فإنه قد مثل القدوة الحسنة في كل مراحل جهاده عايش المحن بكل ألوانها مع إخوانه وتلاميذه. إن طبيعة فهم الإمام الياسين لعمل وحركة القيادة من أهل السبق كانت مصدراً مهماً لبلورة نظريته في العمل الإسلامي، وقد انعكس ذلك على مجمل تحركه اللاحق.

قد لا يدرك أهمية هذا العمل العظيم من لم يعاصر أو يعايش تلك الظروف والأوضاع القاسية إلا أن الحاضر خير شاهد على أهمية ما قام به الإمام الشهيد وما بذله من جهود جبارة في التضحية والفداء وبذل النفس من أجل الأهداف بحيث احتلت حيزاً مهماً في شخصيته. ففي الوقت الذي يمارس الإمام أعلى درجات الحذر نراه ينظر لمسألة التضحية في سبيل الله وفي سبيل إقامة حكمه منطلقاً أساساً لبناء المستقبل الواعد.

التمحيص والابتلاء :

ومن هدا المنطلق فإن التمحيص والابتلاء مرتكز آخر من المرتكزات النظرية في التحرك عند الإمام أحمد الياسين. فهو يعتقد أنّ الأمم لكي تتكامل في مسيرها ينبغي لها أن تمر بعملية تمحيص، وأن الأفراد سيمرون ضمن ذلك بعملية تمحيص. ومن هنا، فإن ما تمرّ به الأمة الإسلامية الآن عموماً، وأبناء فلسطين خصوصاً، هو حسب فهم الياسين عملية تمحيص في أحد جوانبه. ومن هنا فالمعاناة على مرارتها تساهم بشكل مباشر أو غير مباشر بناء الأمة.

ويتم ذلك عن طريق ما يسمى بـ (قانون الترابط بين الأجيال)، فإنّ كل جيل سابق يوصل ما يحمله من مستوى فكري وثقافي إلى الجيل الذي يليه. ويكون على الجيل الآخر أن يأخذ بهذا المستوى قدماً إلى الأمام. ثم أنّه يعطي نتائجه إلى الجيل الذي بعده وهكذا..

وكذلك الحال بالنسبة إلى نتائج التمحيص، فإنّ كل جيل يوصل إلى الجيل الذي يليه، ما يحمله من مستوى في الإيمان والإخلاص.. فيصبح الجيل الجديد، قد وصل إلى نفس الدرجة تقريباً من التمحيص التي وصلها الجيل السابق. ثم أنّ الجيل الآخر بدوره سيمرّ بتجارب وسيقوم بأعمال معينة وسيصادف ظروف الظلم والإغراء، فيتقدم في سلّم التمحيص درجة أخرى، وهكذا.

وبقانون تلازم الأجيال، سيأتي على الأمة زمان، يكون الجيل الذي فيها، قد حقق التمحيص الإلهي فيه نتيجته المطلوبة. حيث ينقسم المجتمع إلى قسمين منفصلين: إلى من فشل في التمحيص فاختار طريق الضلال محضاً، والى من نجح فيه فاختار طريق الهداية والإخلاص محضاً. وبوجود هذه المجموعة يتحقق شرط الانتصار.

ومن مستلزمات النجاح في التمحيص، الالتزام بالتعاليم الإسلامية الحقة. ويحذر الإمام الياسين من انجراف الفرد المسلم مع التيارات المعادية للإسلام وإتباع عقائدها وأحكامها, فالمطلوب إسلامياً هو متابعة الرسول القدوة.

إنّ اللحظة التي استُشهد فيها الياسين بداية لتحديد المسؤولية لمن يأتي ليحمل الراية المضرجة بالدم والمشرقة بآمال النصر. والأمّة تتطلع من بين الوجوه لمن يحملها بيد قوية ويتطلع بعين ثاقبة ويفكر بعقل هو الأمّة. تبحث عن قائد يعمل بشجاعة وصدق فيحول الرأي إلى موقف والقرار إلى فعل، ولا فرق عنده بين أن يموت أو يحيا ما دام ذلك من أجل الإسلام.

علّمنا الياسين أنّ الأمّة تريد القائد الذي يضم بين ضلوعه قلب الجماهير ويحمل في رأسه عقلها، وملامحه هي الشعب كله.. وعند ذلك يكون قائداً لا يقتله الرصاص، مثلما عجز الرصاص عن قتل رافد فلسطين.. الشهيد الياسين.

حكمة الخطاب السياسي للإمام الياسين

كان للشيخ الشهيد أحمد ياسين أطروحة كاملة ناضجة في التحرك الإسلامي السياسي في مواجهة الاحتلال الظالم وهو ما دوّنه سلوكاً في حركته «حماس». ونحن مطالبون بدراسة فكر ونظريات وتوجهات الإمام الياسين فإنها مصابيح في طريق العاملين. كنت ألمس عبقريته الفذة، والتي تجلت أكثر ما تجلت في مستوى خطابه السياسي، الذي لا يتوقع أن يصدر من رجل لا يتحرك فيه إلا رأسه ولسانه. إنه وإن كان أشل الجسد، فروحه وعقله في قمة الانطلاق والحيوية والعبقرية. وقد كنت متتبعاً تصريحاته، وحواراته، فتلمست الحكمة وبعد النظر وسعة الأفق في خطابه السياسي.

فمن ملامح خطابه السياسي في مجال رسم الأسس والمبادئ أنه يوظف أصالة الدين، وحداثة السياسة، لصوغ خطاب سياسي إسلامي أصيل وحديث. إن أحمد ياسين ليس شيخاً تقليدياً لا يجيد إلا لعن ساس يسوس وما صدر عنهما من سياسة، كما أنه ليس سياسياً عادياً يخبط في عالم السياسة.

إن أحمد ياسين شيخ دين، لكنه سياسي بارع يفقه في الدين كثيراً. وإذا كانت حماس حركة تحرر عقائدية، فإن الخطاب السياسي الذي رسمه مؤسسها فك إشكالية توظيف المنطلقات العقائدية في الخطاب السياسي مع التمييز بين مطلق هذه المنطلقات، ونسبية العمل السياسي.

قدم الشيخ الياسين نموذجاً رائعاً في استحضار البعد العالمي للخطاب والنضال السياسي في عصر يسمى "عصر العولمة". فقد كنت تراه يخاطب عواصم العالم الأجمع رغم تباين مواقفها السياسية من أجل استمالة الرأي العالمي إلى حقه المشروع في المقاومة بكل الحجج والبراهين، من الأديان والشرائع ، وأحداث التاريخ ، ومعاناة الفلسطينيين من الصهاينة ..إلخ . كما أنك لا تكاد تسمع من على لسان الشيخ الياسين تصريحات نارية انطلقت من القلب ولم تمر على العقل.

والإمام في هذا يهمس في أذن كل صاحب حق عليك أن تعرف كيف تدافع عن حقك دون أن تخسر ضمائر الشعوب العالمية في الوقوف إلى جنبك من خلال فضح الصورة القبيحة للاحتلال.

ومن تجليات هذه الصبغة العالمية للخطاب السياسي الياسيني، إلحاحه المستمر على بيان أن إسرائيل لا تريد السلام كما تزعم، وأنه مستعد للقبول بوقف المقاومة إذا انسحب الاحتلال إلى حدود 67 كما صدرت بذلك قرارات مجلس الأمن، بل كانت حماس وياسين على رأسها تقبل بالهدنة أكثر من مرة مع إسرائيل لتقول للعالم بلسان الحال قبل المقال أن المشكلة في الاحتلال لا في المقاومة.

ومن تجليات ذلك أيضاً بيانه المستمر أن الحرب القائمة ليست مع اليهود كأصحاب دين، وإنما مع اليهود الصهاينة الذين اغتصبوا الأرض وطردوا الشعب، ولا شك أن هذا الخطاب له وقعه العالمي الانساني مما ساهم الى

اعتبار (إسرائيل) هي أكبر مهدد للسلم العالمي. وأوضح دليل على حكمة الإمام السياسية في خطابه العالمي، استخدام مصطلح المقاومة كمصطلح انساني أكثر من استخدام مصطلح الجهاد كمصطلح اسلامي .

ومن الأمثلة البارزة على الحكمة السياسية توظيفه للنظرة الفقهية إلى أرض فلسطين لتحميل كل المسلمين المسؤولية عنها، وليس حصرها في الفلسطينيين وحدهم. تلك النظرة التي يكررها دائما، وكررها في رسالته إلى الرؤساء العرب حيث قال إن" أرض فلسطين وقف إسلامي لا يجوز التنازل عن شبر منها حتى وإن كنا لا نملك الآن القوة اللازمة لتحريرها".

من ملامح الخطاب السياسي "الياسين" أنه خطاب واضح في عباراته، وفي وسائله، وفي أهدافه. وهذا الوضوح يثيرك إذا تابعت أحاديث أحمد ياسين وحواراته. إنك كنت تراه يعرف ماذا يريد، ولا يتتعتع في التعبير عما يريد، إنه يريد طرد المحتل باللغة التي يفهمها دون أن يؤلب عليه أو يضع خصومه مع أحد.

ولا شك أن وضوح الخطاب السياسي ، معناه وضوح الرسالة التي يتلقاها السامع سواء كان صديقا أو عدواً، فهو خطاب يطمئن الصديق، ويربك العدو.

وكذلك لا تكاد تسمع للشيخ الياسين إلا وتلاحظ الروح التوفيقية والتجميعية تسري في لغة ومضمون خطابه السياسي. وأشد ما تتجلى هذه الروح في موقفه المحلي والعربي، فعلى المستوى المحلي بذل ياسين جهداً كبيراً في جمع كلمة الفصائل الفلسطينية على قاعدة الوحدة الوطنية.

وكما أن حركته تسعى لأن تجمع الأنظمة الرسمية، والأحزاب والحركات المؤيدة والمعارضة حول دعم القضية الفلسطينية ، بغض النظر في علاقات هذه الأحزاب بحكوماتها.

كان الإمام الياسين واقعياً وهو يتطلع إلى المستقبل، لا ينسى واقعه المعاش، لقد كان ينظر بعين إلى المستقبل، وبأخرى إلى الواقع . إنه كان ينظر إلى واقع المقاومة وإمكاناتها البشرية والمادية، فيسير بها من الحجارة إلى السكاكين، إلى العمليات الاستشهادية، وقذائف الهاون والبنا والبتار وصواريخ القسام... وينظر إلى واقع السلطة والفصائل الأخرى التي تسكن معه في نفس البيت، فيحاول أن يقنع المتردد، ويعلم الجاهل، ويصبر على المعاند. وينظر إلى واقع الجيران من العرب والمسلمين، فيستبشر إذا أعين، ولا ييأس إذا طرد وجفي. وينظر إلى واقع العالم الذي تصول وتجول فيه أمريكا كما تشاء طغمة شيطانية تديرها في العلن أو الخفاء، فيكون أول من يعطي البرهان أنه من الممكن ألا ننهزم ولا نستسلم أمامها.

لا شك أن المتتبع لمسيرة حياة الإمام الشهيد الياسين سيكتشف ملامح أخرى كالأناة السياسية، والصلابة في الثوابت والمرونة في الوسائل، ونماذج أخرى للملامح التي ذكرت والتي لم أذكر، وسيتضح له أن الإمام الياسين أسس

مدرسة في فن الخطاب السياسي خاصة كما أسس حركة مقاومة . ولا شك أن هذه المدرسة هي إبداع من تلميذ نجيب للمدرسة الوسطية الكبرى التي ينتمي إليها الشهيد الياسين .

الحزن العميق الذي سقطنا فيه فجر استشهاد الإمام الياسين، كانت تنمو بداخلنا مشاعرُ الخوف الكبير على مستقبل قيادة العمل الإسلامي في فلسطين خاصة في بُعده المرجعي, ولكن المعية الإلهية والتوفيق الرباني والإخلاص والتفاني دلائل الرضا الإلهي بحول الله تعالى بأن نصر الله قادم " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا " [العنكبوت : 69].

الإمام الياسين خلاصة تجربة

لقد قام الشهيد الإمام الياسين أحسن قيام بأداء دور القائد في فلسطين الجريحة، فالتفّت الملايين من الناس حوله وآمنت بخطه واتبعت نهجه، واستشهد تطبيقاً لمبادئه، وجماهيره ما تزال تواصل طريقه في فلسطين الشهادة. وآمنت به الطلائع الواعية من ذوي البصائر وأصحاب العقيدة الإسلامية الراسخة، ولا عجب في ذلك، فقد كان عهده بهذا المعلم الشهيد بعيداً فلطالما تثقفوا في مدرسته وتدارسوا روائعه وتعلّموا منهج الإسلام العظيم على يديه.

قدّم الإمام الياسين في تجربته الطويلة منهاجاً عملياً في التعامل مع القضية وتحريكها باتجاه الهدف الإسلامي، ويمكن أن نستخلص أهم سمات هذا المنهاج بما يلي:

أولاً: إنّ الأمّة في فلسطين لم تعد بحاجة إلى المزيد من التوعية والمهام الفكرية، إنّما تحتاج إلى قائد يعيشها وتعيشه في علاقة حب متبادلة، فالقائد الذي يمنح الأمّة قلبه، يجدها سخيةً في منحه الولاء، تُعطي الروح والجسد بكل أريحية، وليس بعد هذا وفاء. قلب القائد هو التعبير الواقعي عن مصداقية القيادة وجدارتها في رسم الطريق للأمّة والتفاعل بها ومعها. وقلبُ القائد هو شرط أول في القائد الميداني.

ثانياً: لقد استطاع الإمام الياسين أن يَفهم الأمّة، ولأنّه فهِمَها بعمق ودقة فإنه تمكن من التأثير فيها، والأمّة تريد القائد الذي يفهمها... ويراها وتراه بلا حجاب أو ستار.. إنّها تريد قيادة ميدانية تتقدم الصفوف بشجاعة، وعند ذاك تبادر إلى فعل كل ما يراد منها، تحول إيماءته إلى موقف... وإشارته إلى فعل... ورأيه إلى تيار.

ثالثاً: إنّ الأمّة لم تعد بحاجة إلى المزيد من التوعية والتنضيج، بل هي واعية وناضجة بما فيه الكفاية، وهل هناك نضج ووعي أكثر من إرادة الثورة والتضحية، وقد أدرك الإمام الياسين هذه الحقيقة وعمل على أساسها، فقد كان (رحمه الله) يركز على ثقافة الثورة وليس ثورة الثقافة. كان يريد ثقافة الفعل لا الفعل الثقافي. وهذا ما يدعونا إلى تقييم دائم لجماهيرنا لمعرفة مستوى النضج والوعي على أسس موضوعية تقدر مستوى النضج، وتقدر نقاط التحول التاريخي في مسارات الأمّة وحركتها.

رابعاً: يخطئ من يفكر بأنّ الإنسان الفلسطيني يتعب أو يرهقه طول السير، فهو يتجدد مع الأيام، يتمرد على الجراح والحزن، والأكثر من ذلك يستطيع أن يبدع القوة.. يجمع الأشلاء ليحولها إلى عملاق يتحدى.. يؤلف من دموع المحنة نشيداً متحدياً... ويحول الآهات صرخة ثورة. وهذا ما بينه الشهيد الياسين في مسيرة عطائه، وجاء من بعده رواد مدرسته ليسيروا في هذا الاتجاه، ويحقق نجاحاً تاريخياً تشهد له أرض فلسطين بجماهيرها ونخيلها ومساجدها، ولا حاجة بعد ذلك لمزيد شهود.

خامساً: كان الإمام الياسين وكما يفهم من تجربته ومن بعض الأحاديث الخاصة . يؤمن بضرورة المبادرة القيادية عندما تكون مطابقة للحكم الشرعي، وأن العمل بالتكليف الشرعي هو ضمانة للمواصلة والاستمرار، وعدم الميل إلى تعقيد المشروع بالدراسات المستفيضة التي تقتله بحثاً ونقاشاً فإذا ما خرج إلى شمس الواقع خرج أرمدَ من كثرة ما أرهقه سهر النقاش. وهو في ذلك يؤمن بأهمية التحرك والفعل الجماهيري. فالأمّة ليست موضوعاً للنقاش والتأمل، إنما هي قوة بحاجة إلى استثمار وتحريك باتجاه الهدف المطلوب، ولا يحرك هذه القوة قائد النظرية فحسب بل قائد النظرية والتطبيق.

وخلاصة القول أنّ الياسين كان ظاهرة في العمل الإسلامي ومدرسة في الموقف القيادي، كان ظاهرة رائدة ولدت في عصرها لتحدث التغيير في مرتكزات المفاهيم السائدة، وأخالف كل الذين يقولون أنّه ولد في غير عصره. لقد صنع الياسين العصر الذي يريد، وإذا بالشعب في فلسطين يفتح عينيه ليجد رافداً جديداً من العمل الرائد الأنموذج.